

## مفهوم الولاء في ضوء الخبرة الحضارية الإسلامية

### من التجزئة نحو وحدة الأمة العربية

هشام صميض\*

safire05@gmail.com

**مقدمة:** مفهوم الولاء من المفاهيم التي تثير في ذهن عدة معانٍ سياسية وأخلاقية، مما يجعله مفهوماً مثيراً للجدل بامتياز. فقدما ارتبط مفهوم الولاء بالسلطة والحرب، خاصة في النظم العسكرية، وبالأرض والمحافظة عليها في البيئة الزراعية، والقبيلة أو العشيرة في البيئة الصحراوية، وبالمعتقد في البيئة الدينية، وبالنظام السياسي عند الدولة الحديثة أو الدولة القطرية<sup>1</sup>.

لقد بات الولاء إحدى القيم الأخلاقية التي يطالب الفرد بالتمسك بها، غير أن هذا المفهوم أصبح يثير مجموعة من الإشكالات منها ما يتعلق بطبيعته ومدى الحاجة إليه، وما إذا كان فطرياً أو مكتسباً، ومنها ما يختص بأنواع الولاء وصفات القضايا التي يتم الولاء لها، وكذلك منها ما يرتبط بتعارض الولاءات والصراع بينها، ومع تطور المجتمعات وتشعب العلاقات داخلها اكتسب مفهوم الولاء أهمية كبرى لعلاقته بتماسك الأمم المجتمعية ووحدها، فما تعيشه أمتنا اليوم من فرقة وتشتت ما هو إلا نتاج لتعدد الولاءات، مما أوجب نفخ الغبار، إن صح التعبير، على هذا المدرك وتجديده ليشكل أداة لحملة للأمم المجتمعية تتجاوز لكل تجزئة وتشردم.

إن احتلال العراق في 2003 من طرف الولايات المتحدة الأمريكية شكل نقطة انعطاف وتحول في الذاكرة العربية، بحيث تباينت مواقف الأفراد والجماعات تجاه هذا المحتل المستعمر الأجنبي، ما بين مقاوم ومهادن ومهلل من تلك الأحداث، بحيث طرح الشارع العربي جملة من التساؤلات جلها حول مفهوم الولاء وجدليته ومكانته في العقل العربي: هل ولاء الفرد مازال محصوراً في العائلة والقبيلة والعشيرة أم للطائفة والمذهب الديني أم للحاكم والحزب أم للوطن والأمة؟

ورغم أن هذه المسألة قد أثارها ابن خلدون منذ قرون والعديد من الفقهاء والكتاب العرب فيما بعد، إلا أن إثارة هذا الموضوع حالياً، قد يجيب في نظرنا على إشكالية الولاء في العقل العربي والإسلامي خصوصاً في عصرنا الراهن وكذلك عن الأسباب التي دفعت به لأخذ مثل هذه المواقف من الغزاة أو من الطائفة والقبيلة، وذلك من خلال طرحنا لمفهوم العصبية والولاء في الوجدان العربي وبعده القيمي والتاريخي والسياسي<sup>2</sup>.

سنحاول في مقالتنا هذه أن نجيب على سؤال محوري: ما هو محدد الولاء داخل أمتنا العربية؟

ومن خلال سؤالنا المحوري أعلاه، سنقوم بتفكيكه إلى سؤالين فرعيين:

❖ **السؤال الفرعي الأول:** ما هو مضمون الولاء ضمن واقع خبرتنا التاريخية؟

❖ **السؤال الفرعي الثاني:** كيف يمكن للولاء أن يكون محدداً أساسياً لوحدة الأمة العربية؟

وفرضيتنا تتركز على أن محدد الولاء في أمتنا المجتمعية العربية ليس هو النسب، أو القبيلة، أو الطائفة، أو الوطن، أو الحزب، أو الدولة، بقدر ما هو الانتماء إلى الجماعة، ومدركاتها الجماعية كما نظم خيطها الإسلام، باعتباره عقيدة توحيدية، ونظاماً اجتماعياً، وظاهرة حضارية، وتاريخية، وعالمية، وشاملة، تتجاوز الأوطان.

\* طالب الدكتوراه، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية سلا، جامعة محمد الخامس الرباط.

<sup>1</sup> جوزايا رويس (ترجمة أحمد الأنصاري)، **فلسفة الولاء**، (مصر، المجلس الأعلى للثقافة، 2002م)، ص5.

<sup>2</sup> عادل نايف أبو ترابة: **إشكالية الولاء في العقل العربي العراقي نموذجاً**، **الحوار المتمدد**، (عدد 1368 بتاريخ 4 نونبر 2005)، منشورة على موقع الجريدة الإلكترونية

على الرابط التالي: [www.ahewar.org](http://www.ahewar.org)

وقصد الإجابة عن الاستشكال السابق والسؤالين الفرعيين المرتبطين به ارتأينا سلك المسار البحثي التالي:

### المحور الأول: مفهوم الولاء ضمن واقع خبرتنا التاريخية بين العصبية والدولة القطرية

سنحاول أن نتحدث عن فلسفة الولاء، مقتصرين على مفهومين أساسيين ارتبطا تلازما مع مدرك الولاء، وهما العصبية القبلية والدولة القطرية، وهذا طبعاً، في ظل ما تعيشه الأمة العربية من تجزئة وفرقة سياسية، معتمدين في ذلك على بعض المراجع منها:

✓ **عبد الرحمان بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، 2001م.** بحيث سنبن من خلال هذا المرجع الدور المركزي للولاء العصبي، وذلك حينما اعتبر الكاتب أن رابطة العصبية هي دائماً أقوى من رابطة العقيدة أو توازيها، وأنها هي الأصل، يتفرع عنها وحدات بسيطة هامشية.

✓ **محمد عابد الجابري: العقل السياسي العربي محدثاته وتحليلاته، الطبعة الرابعة، 2000م.** ميزنا في كتابه التحول الذي حصل في مفهوم الولاء من "القبيلة" إلى "اللاقبيلة" إلى "التنظيم المدني، السياسي، الاجتماعي"، وأعقبه ولاء تحول من "الإسلام السياسي" إلى "الإسلام العقيدي" الصِّرف.

### المحور الثاني: الولاء والانتماء كأساس لوحدة أمتنا العربية

سنحاول أن نحدد فيه أن أساس الوحدة في أمتنا المجتمعية هو الولاء للجماعة، ومدركاتها الجماعية، كما نظم خيطها الإسلام كعقيدة توحيدية أولاً، و كحضارة تاريخية ثانياً معتمدين في ذلك على بعض المراجع أهمها:

- علي سعد لطف: "إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة"، مقالة منشورة في كتاب مجموعة من الباحثين: *الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر*، نونبر 2013م. والذي يعتبر فيه الكاتب أن الوطن العربي ما هو إلا كيانا مركبا، تتداخل فيه الولاءات المحلية بالولاءات الوطنية، وأن الانتماء يعد أساس الهوية الاجتماعية، مجيباً عن سؤال الهوية في صيغة من نحن؟.

- سعيد خالد الحسن: *مدخل تمهيدي لدراسة نظرية القيم السياسية (نسق المدركات السياسية الجماعية)*، الرباط، 2010م. والذي أبرز في كتابه أن الولاء يكون لأمة الإسلام المجتمعية العربية ومدركاتها الجماعية الحضارية، أساسه الإيمان الطوعي، الجواني، بالنظام الاجتماعي للإسلام وليس بأسسه العقائدية،

### المحور الأول: مفهوم الولاء ضمن واقع خبرتنا التاريخية بين العصبية والدولة القطرية.

**الولاء والعصبية:** لاشك أن مفهوم الولاء في سياقه الفكري انطلق من مفهوم الانتماء للقبيلة التي شكلت أهم مكونات المجتمع العربي تاريخياً، معتمدة على النسب في صلاتها، و رغم ما يعتري هذا المفهوم من تداخل العصبية نتيجة لتعدد الأنساب وتداخل المصالح في القبيلة الواحدة فإنها حافظت على قيم ثابتة تمثلت بالشعور بالقرابة والالتحام أمام العدو والانتماء للنظام القبلي الموحد والولاء له، هذا الأخير قد يكون حاضراً بحدّة في القبائل البعيدة عن التحضر، وأقل حدة في القبائل المحتكة بالمدينة والمناطق المتحضرة، نتيجة لتطور المصالح المادية وتشابكها بين الأفراد بغض النظر عن انتمائهم القبلي.

وإذا كان الإسلام قد حد إلى حد ما من هذا الولاء، إلا أنه سرعان ما برز من جديد بحدّة في الأحداث المصيرية التي مرت بها الأمة، خاصة بعد وفاة الرسول S بحيث أن ما وقع في سقيفة بني ساعدة لم يكن نتيجة اختلاف ديني، بقدر ما كان معالجة سياسية محضّة من طرف الصحابة لمسألة السلطة السياسية، سادها منطق القبيلة، لما لها من دور في تغليب كفة أبي بكر وترجيحها، فبعدما تساوى المهاجرين والأنصار في نصرة الإسلام، فسح المجال للقبيلة لتحسم في الأمر لأن المسألة كانت اجتهادية صرفة، مما حمل المسلمين مهاجرين وأنصارهم على تغليب مصلحة الدولة بتغليب كفة القبيلة، باعتبارها ميزان القوى في المجتمعات القبلية، وهذا ما يبين أنه لم يكن لا للعقيدة ولا للغنيمة دور يستحق في معالجة مسألة الخلافة<sup>3</sup>.

<sup>3</sup> محمد عابد الجابري، *العقل السياسي العربي محدثاته وتحليلاته*، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2000، ط 4)، ص 136-137.

ومع العودة إلى مرحلة صدر الإسلام وما عرفه المجتمع من أحداث و تطورات، يتبين أن رابطة النسب والولاء لها، تداخلت مع رابطة المصير والعقيدة نتيجة حلول مفاهيم مصلحة جديدة تجاوزت أفراد القبيلة الواحدة ومصالحهم إلى الأمة الواحدة ومصيرها، وهكذا كان التحول في مفهوم الولاء من القبيلة إلى اللابلية إلى تنظيم مدني، سياسي، اجتماعي<sup>4</sup>، وأعقبه ولاء تحول من الإسلام السياسي الذي اعتمد الغنمة إلى الإسلام العقيدي، بحيث تحولت الغنمة إلى اقتصاد ضريبي أي من اقتصاد ريعي إلى اقتصاد إنتاجي، وتحولت العقيدة من تفكير مذهبي طائفي متعصب إلى رأي<sup>5</sup> وحالة إيمان مطلق صبغت الإنسان الجديد بولاء يقوم على العقل، بحيث أخذ بعداً أكثر تفاعلاً مع الجماعة وإيماناً بسلوكها بدلاً من الإبقاء على الصيغ والعلاقات الفردية التي كانت سائدة.

وهكذا نجد أن المجتمع العربي المسلم في بدايات تكوينه تنازع ازدواجية الولاء، ولاء ديني وآخر عصبي قبلي بحيث انتهى الأول إلى دار الإسلام وبقي ثابتاً رغم ما عرفه هذا الولاء من تشويش وتأويل لمفاهيم بعيدة عن روح الإسلام خلقت التشرد المذهبي والطائفي في مراحل محددة من التاريخ نتج عنها صراعات دموية، رسخت الأبعاد التجزئية للمجتمع المسلم. والانتماء الثاني هو الولاء العصبي القبلي ولكن بمفهوم لا ينفي الولاء الأول، هذا الولاء الذي لعب دوراً كبيراً في نشر الإسلام ووضع الملامح العامة لحضارة امتدت من الأندلس إلى حدود الصين كان من مميزاتها التسامح والمشاركة والتعايش<sup>6</sup>.

لقد حاول ابن خلدون أن يعطى دوراً مركزياً للولاء العصبي، معتبراً رابطة العصبية أقوى من رابطة العقيدة أو توازيها، مؤكداً في ذلك على أنها هي الأصل ويتفرع عنها وحدات أبسط، فـ "كل حي أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم أيضاً عصبية أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاماً من النسب العام لهم مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو أخوة بني أب واحد"<sup>7</sup>، بمعنى آخر أن العصبية الموحدة تحمل في طياتها عوامل مفتتة أيضاً، وهذا لا نراه فقط في الولاء العصبي، بل يتجاوز ذلك إلى الولاء الديني من خلال الولاءات المذهبية والطائفية.

وإذا ما أردنا أن نحدد مساراً لتطور مفهوم الولاء العصبي وفق تسلسل تاريخي وقيمي وسياسي يمكن أن نحدده في المراحل التالية<sup>8</sup>:  
**أولاً:** بدأ بعصبية قبلية عرفت قبل الإسلام اعتمدت على النسب (الدم والرحم)، كأساس للنظام الاجتماعي الجاهلي<sup>9</sup>، شعاره "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"<sup>10</sup>.

**ثانياً:** عصبية دينية قبلية كان الانتماء بها للمجتمع المؤمن الجهادي، بعد أن خفف الإسلام من مفهوم القبيلة وحد من مفاهيمها ومن صراعاتها، وقاد المجتمع إلى تحالفات جديدة أساسها العقيدة دون النظر إلى المكانة والوجاهة ودون أن يقضي عن الولاء للقبيلة والتعصب، لها وقد برز بعد وفاة الرسول.

**ثالثاً:** مع تطور المفاهيم وسيادة العقيدة واتساع رقعة الدولة في أعقاب الفتوحات الكبرى، وتزايد المكاسب المادية ظهرت عصبية القبيلة بمفاهيم جديدة في أواخر عهد الخليفة الراشد عثمان، تمثلت في الولاء للقبيلة وللمكان، وكان من إفرازاته صراعات سياسية على الخلافة ودموية على السلطة، تزامن ذلك مع بروز أفكار مقاومة لهذا الولاء، التي بدورها تحولت إلى ولاء تارة للعقيدة فكان الخوارج، وتارة أخرى للعشيرة فكان من تشيع لعلي. وقد ترسخ هذا الولاء القبلي المكاني المادي بشكل جلي في عصر الدولة الأموية، حيث شجع حكامها هذا النوع من الولاءات، غير مدركين التناقض الحتمي بين نظم القبيلة ونظام الدولة، التي يرغبون في تمتين عراها، مما حول هذه العصبية إلى معول حاد، فتت أركان دولتهم<sup>11</sup>.

<sup>4</sup> محمد عابد الجابري، ن.م، ص 374.

<sup>5</sup> محمد عابد الجابري، ن.م، ص 374.

<sup>6</sup> عادل نايف أبوترابة، م.س.

<sup>7</sup> عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، (بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2001)، ص 164.

<sup>8</sup> عادل نايف أبوترابة، م.س.

<sup>9</sup> خالد بن عبد الرحمن الجريسي، العصبية القبلية من المنظور الإسلامي، (الرياض، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، 2006)، ص 33.

<sup>10</sup> قيل أن أول من قال هذه العبارة قبل الرسول هو جندب بن العنبر، للمزيد من التفاصيل انظر: خالد بن عبد الرحمن الجريسي: العصبية القبلية من المنظور الإسلامي، (الرياض، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، 2006م)، ص 33.

<sup>11</sup> أنظر: بوزيان الدراجي، العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية تاريخية، (القبة-الجزائر، دار الكتاب العربي، 2003م، ط 1).

وفي ظل الدولة العثمانية التي لم يحمل حكمها أي طابع توحيدي، فَقَدْ فَقَدَ الولاء العصبي خلال هذه الفترة قيمته باتجاه مركز الخلافة، وتزعزع مفهوم الولاء الديني (الحضاري) نتيجة لضعف الولاء العصبي، على اعتبار أن الأتراك حكموا العرب بعناصر غريبة اللسان والانتماء، كما حكموا على أساس تجزيي وليس بصيغ موحدة لأطراف الخلافة حيث كانت الطوائف والمذاهب والقبائل والمدن والبادي تعيش حالات انفصال وتباعده شبه واضح<sup>12</sup>. إضافة إلى ما تنبوه من نظام للامتيازات لغير المسلمين من العرب، أجح مشاعر العرب وأيقظ حسهم بالانتماء القومي، والذي استغل فيما بعد من طرف المستعمر الأوروبي، لبسط سيطرته على المنطقة بعد انهيار الخلافة العثمانية، بناء على السياسة التي نحتتها أوروبا آنذاك والتي سميت بسياسة "الرجل المريض"، وهي السياسة الداعية إلى إبقاء الدولة العثمانية واهنة ضعيفة، ليتسنى لهذه الدول انتزاع أجزائها وفقا لما تسفر عنه توازنات القوى بينها في تصارعها وتنافسها<sup>13</sup>، ومن ثم أبرمت اتفاقات سرية قسمت أوصال منطقة المشرق ورسخت لما يعرف بالدولة القطرية.

**الولاء والدولة القطرية:** إن قيام الدولة القطرية ما كان إلا نتيجة لتفاعل ولاءات مبعثرة للأمة خالقة وعيا منقوصا بالعقل العربي السياسي، بحيث كثيرا ما كان يتم الخلط بين العدو والصديق، بين السلطة والحاكم والوطن، وذلك بتأثير خارجي انعكس بشكل سلبي على كل من الموروث والوافد، وظهرت مفاهيم محدثة لتتناسب وحقيقة ما حصل في الوجدان العربي من تطورات ففرغ الحزب/العشيرة، والحزب/العائلة، والحزب/الطائفة، والحزب/الحي أو المنطقة أو المدينة أو الإقليم أو القطر<sup>14</sup>.

لقد وقف دعاة الإصلاح السياسي في البلاد الإسلامية عند أفكار مبتورة مثل: الحرية، العدل، القانون، الدستور، من أجل فرضها على المجتمعات العربية، مما أضعف فكرهم السياسي<sup>15</sup>، وساهم في إرباك فكري انعكس بشكل سلبي على مفهوم الانتماء والولاء عامة وفي عقل الفرد خاصة، وذلك لمصلحة الولاء القطري المناطقي الذي كان من نتائجه تفتيت الكيان العربي وإضعافه.

وهكذا أصبح الحديث عن ولاء مرتبط بالوطن بعد أن منحت الدول الغربية الاستعمارية استقلالاً لمناطق ودول رسمت حدودها في مكاتب الطبوغرافيا الغربية وأعطيت شرعيتها القانونية لنخب شكلت أحزاب وجمعيات تحمل في عقائدها متناقضات الولاء الكامنة في العقل العربي وتختزن عوامل العجز في ترسيخ القيم الحضارية العامة للأمة. فأسست فكرة الولاء المناطقي (القطري) أو القومي بمجهد مفكرين تأثروا بالقيم الحضارية الغربية<sup>16</sup>.

فدعاة الانفصال عن الدولة العثمانية، والذين كانوا هم أنفسهم من دعاة القومية العربية، أصبحوا أو أصبح معظمهم في المرحلة الجديدة، قادة للدول القطرية، وبالتالي أعطوا لمفهوم القومية والوحدة في تلك المرحلة، معان وصيغا تلائم مصالحهم<sup>17</sup>، مما شكل توجيهها معنويا للناس، من تعزيز ولائهم للقطر، كشعار يكتنفه مفهوم القومية العربية.

لما تشكلت الدولة القطرية في الربع الأول من القرن الماضي، أصبحت الولاءات الفرعية في طريقها إلى النظام السياسي العربي المعاصر وبرز الانتماء الوطني ليعبر كمكون أساس للوحدة الوطنية في رقعة جغرافية غير متجانسة سكانيا<sup>18</sup> وفي أغلب الأحيان متداخلة بشريا<sup>18</sup>، ونضجت ولاءات فرعية هامشية طائفية، وإقليمية، على حساب ولاءات تقليدية للأمة العربية (الأمة، الحضارة، الموروث، والقيم)، بحيث تحولت هذه الولاءات الفرعية، إلى مصادر استمرارية للدولة القطرية ببعدها التجزيي وليس الوحدوي، كما أرادها التيار القومي العربي ودافع عنها.

<sup>12</sup> عادل نايف أبوترابة، م.س.

<sup>13</sup> طارق البشري، "عن حركة تكوين الجماعات السياسية" مقالة منشورة في كتاب لمجموعة من الباحثين: *حدايات الاندماج الاجتماعي وبناء الدولة والأمة في الوطن العربي*، (الدوحة/قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، ماي 2014، ط1)، ص 84.

<sup>14</sup> عادل نايف أبوترابة، م.س.

<sup>15</sup> علي أومليل، *الإصلاحية العربية والدولة الوطنية*، (بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، 1985م، ط1)، ص 97.

<sup>16</sup> عادل نايف أبوترابة، م.س.

<sup>17</sup> عبد الرحمن منيف، "القومية والهوية والثورة العربية" مقالة منشورة في كتاب لمجموعة من الباحثين: *الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر*، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، نونبر 2013م، ط1)، ص 66 و 67.

<sup>18</sup> عادل نايف أبوترابة، م.س.

لقد ولدت التجزئة العربية، مفهوم القطرية بمعناها الانتمائي والولائي لدولة القطر، أي الانحياز لها أيديولوجيا وسياسيا وثقافيا، مما ولد حالة معقدة من الصراعات العربية - العربية، كانت مميزاتها سلسلة من الخلافات الحدودية هنا وهناك، مع إرساء أساسات لصراعات حول الزعامة<sup>19</sup>. وتزامن ذلك مع تطور الوعي الشعبي حول مفهوم الوطن، وذلك ارتباطا بقناعة أنحب الوطن من الإيمان.

إن الأمة العربية، كما عبر عنها مفكرنا الكبير عصمت سيف الدولة رحمه الله في كتابه عن العروبة والإسلام، موجودة موضوعيا، وأن وجودها غير متوقف وجودا أو عدما على إرادة أحد، كما لا يمكن لأي عربي أو جماعة عربية أو قطر عربي أن يفلت بمصير أمته، وإن كان كذلك فإن مآله الفشل حتى ولو حين<sup>20</sup>. فانحصار الولاء على مستوى ولاء فرعي قطري يفتت أي وحدة محتملة لأمتنا العربية.

وقد حاولت الدولة القطرية أن تثبت الولاء لها، انطلاقا من مؤسسات استحدثت لهذا الغرض، حيث تم إنشاء أجهزة إدارية وقانونية تتناسب وطبيعة النظام القطري وتوجهاته، أحكمت السيطرة على الخصوصيات المحلية القطرية، فرسختها بين أبناء القطر الواحد، وصبغت الإدارة بمفاهيم وطنية اعتبرتها مقدسة، موازاة مع ذلك تم إنشاء أجهزة أمنية وعسكرية لحماية الدولة القطرية ولترسيخ حدودها الجغرافية التي لا تنسجم والواقع الجغرافي والبشري والاجتماعي ولا تتوافق إلا مع الولاءات الفرعية ذات البعد التفتيتي<sup>21</sup>، ساهمت بشكل جلي في ما تعيشه الأمة العربية من فرقة وتجزئة، بعدما كانت لحمة واحدة موحدة.

ولم يكن الخطر من إنشاء هذه المؤسسات، فقط في تدعيم الولاءات التفتيتية للأمة أكثر ما كان تأكيدا لولاءات جديدة تمثل في الولاء للحاكم والسلطة والحزب والطائفة، فعندما يسود النظام الطائفي يغيب الوطن، هذا مع خلق وعي مجتمعي جديد ينسجم مع هذه المؤسسات ويتوافق والغرض من إنشائها، تمثل أساسا في قناعات طبعت الفرد داخل الجماعة مفادها أن الغرض من الاستقلال الوطني لم يكن إلا خلق القائد الزعيم، البطل، المحرر لتثبيت سلطته وليس لتحقيق الاستقلال الوطني، كما أن تشابك مصلحة الفرد بالولاء القطري أدى الى تعطيل دور الجماعة<sup>22</sup>.

هذه القناعات ظهرت بشكل ملموس، خاصة أمام الأحداث التي عرفتها المنطقة العربية والإسلامية في الآونة الأخيرة وتبين ذلك بشكل جلي في موقف الأنظمة الحاكمة والشعوب من احتلال العراق والمقاومة الفلسطينية، حيث تباينت المواقف السياسية وتعددت، مما طرح تساؤلات أساسية حول أبعاد مفهوم الولاء ودلالاته، خاصة عندما تتعارض الخصوصيات القطرية والانتماء لها مع مفهوم الولاء للجماعة، بما يعنيه ويحتز به من منظومات دينية وعقدية وفكرية وقيمية وحضارية وتاريخية مشتركة، تمثل أبعاد المجتمع.

## المحور الثاني: الانتماء والولاء كأساس لوحدة الأمة العربية

يعاني الانسان العربي المعاصر أزمة هوية وانتماء طابعها العمق والشمول، بحيث تعود هذه الأزمة إلى وجوده في ظل كيانات اجتماعية متعددة ومتعارضة، تبدأ بالقبيلة وتنتهي بالدين والقومية، مما يجعل من الوطن العربي كيانا مركبا ومعقدا، تتداخل فيه الولاءات المحلية بالولاءات الوطنية، ولا تتطابق فيه حدود الجغرافيا مع حدود المشاعر ولا حدود السياسة مع حدود الأمة<sup>23</sup>. فالانتماء يعد أساس الهوية الاجتماعية وعصب الكينونة الاجتماعية، فهو يجيب عن سؤال الهوية في صيغة من نحن؟، ويعتبر الولاء الجانب الذاتي في مسألة الانتماء أقصى حدود المشاركة الوجدانية والشعورية بين الفرد وجماعة الانتماء<sup>24</sup>.

<sup>19</sup> منير شفيق، التجزئة... والدولة القطرية، (القاهرة، دار الشروق، 2001م، ط1)، ص32.

<sup>20</sup> عصمت سيف الدولة، عن العروبة والإسلام، (ب.م، صوت العرب، يوليو 2010)، ص 103.

<sup>21</sup> عادل نايف أبوترابة، م.س.

<sup>22</sup> عادل نايف أبوترابة، ن.م.

<sup>23</sup> علي سعد لطف، "إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة"، مقالة منشورة في كتاب لمجموعة من الباحثين: الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، نونبر 2013، ط1)، ص153.

<sup>24</sup> علي سعد لطف، ن.م، ص155.

لقد عملت الدولة القطرية في الوطن العربي، وبصفة مستمرة، على إحياء مختلف الولاءات الطائفية والعشائرية في المجتمع، دون أن تعمل على تغييرها، بحيث جعلت منها منطلقات لمشروعة للعمل السياسي<sup>25</sup>، فالسلطة في الأوطان العربية لم تتمكن من خلق الاندماج الاجتماعي بين فئات المجتمع، بل كانت أحيانا هي الدافع إلى خلق العزلة والتعصب والتنافر بين الجماعات، بحيث لم تتمكن من خلق نموذج وحدوي يُجمَع بين مختلف الجماعات الفرعية<sup>26</sup>. إن يحمل القاعدة الأخلاقية للدولة القومية الحديثة المستندة على مبادئ نفعية وولاءات عرقية ضيقة، هو النقيض تماما للدولة الإسلامية الحقبة التي تسمو فوق الولاءات الفرعية وتتوجه نحو عموم الانسانية ولا تعترف بغير سلطة الله<sup>27</sup>، يستحيل الإنسان أن يعيش بدون انتماء<sup>28</sup>، ذلك الذي يبدأ معه منذ لحظة ولادته صغيراً بهدف إشباع حاجته الضرورية، وينمو هذا الانتماء بنمو ونضوج الفرد إلى أن يصبح انتماءً للمجتمع الكبير الذي عليه أن يشبع حاجات أفراد، والإنسان لا يمكن أن يحقق الشعور بالمكانة والأمن والقوة، إلا من خلال الجماعة، كجماعة للانتماء وكيان أكبر وأشمل وأقوى يكون فيه الفرد في حالة توافق متبادل مع جماعته ليتم التفاعل الإيجابي بينهما، ويكون ولاؤه بعد الله لـ "أمة الإسلام المجتمعية العربية"<sup>29</sup> ومذكراتها الجماعية الحضارية (إسلامية عربية)، أساس هذا الولاء الإيمان الطوعي بالنظام الاجتماعي للإسلام وليس بأسسه العقائدية<sup>30</sup>، مصداقاً لقوله "قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"<sup>31</sup>.

إن الإسلام يعتبر الجماعة التي تحكم بموجب أحكامه وحدة إنسانية بغض النظر عن طائفتها وجنسها، فليس في الإسلام ما يسمى بالأقليات، بل جميع الناس لهم الاعتبار الإنساني، وأن أساس التفاضل بين الناس هو التقوى فقط، قال الله "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"<sup>32</sup>. كما أن الإسلام يطبق على جميع الرعايا باعتباره قانوناً للجميع، فحين تطبق أحكام المعاملات والعقوبات مثلاً، ينظر إلى الناحية التشريعية القانونية، لا الناحية الروحية الدينية<sup>33</sup>. وعند العودة إلى التجربة الإسلامية الرائدة التي خاضها الرسول الأمين في المدينة المنورة مع انطلاقة دعوته من حدودها المحلية، كان من لوازم المشروع السياسي المراد إقامته في المدينة المنورة، إيجاد رابطة أعم من رابطة العقيدة لتحتضن التنوع من مكونات شعبها، ولهذا عقد الرسول (ص) اتفاقاً عرف باسم (صحيفة المدينة)، عدت أول وثيقة حقوقية نظمت العلاقة العضوية بين أفراد الجماعة السياسية وضمنت الحقوق والواجبات على أرضية التعددية الدينية والعرقية، فكانت بحق أول عقد مواطنة متقدم على عصره كرس المعنى الحقيقي لمفهوم المواطنة العصرية<sup>34</sup>.

ومن هدي تلك التجربة الرائدة أن الإسلام لم يأت ليمنع ما فطر عليه الناس، فهو يعترف بعملية الانتماء الاجتماعي للأسرة قال تعالى "ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ"<sup>35</sup>، والقبيلة "وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا"<sup>36</sup>، ولكنه في الوقت ذاته أكد على لسان رسوله S أنه "ليس منا من دعا إلى عصبية"<sup>37</sup> أو جاهلية أو قومية.

<sup>25</sup> علي سعد لطفي، ن.م، ص 169.

<sup>26</sup> علي سعد لطفي، ن.م، ص 170.

<sup>27</sup> عبد الوهاب الأندي، "إعادة النظر في المفهوم التقليدي للجماعة السياسية في الإسلام: مسلم أم مواطن؟"، (مشروع دراسات الديمقراطية في البلدان العربية، الجماعة العربية للديمقراطية، يونيو 2001م)، ص 4. [www.arabsfordemocracy.org](http://www.arabsfordemocracy.org)

<sup>28</sup> سعيد خالد الحسن، مدخل تمهيدي لدراسة نظرية القيم السياسية (نسق المدركات السياسية الجماعية)، نسخة محدودة التداول، (ب.ن، الرباط، 2010م)، ص 28.

<sup>29</sup> سعيد خالد الحسن، ن.م، ص 20.

<sup>30</sup> سعيد خالد الحسن، ن.م، ص 24.

<sup>31</sup> سورة الحجرات الآية 14.

<sup>32</sup> ن.م، الآية 13.

<sup>33</sup> سامر مؤيد عبد اللطيف، "المواطنة واشكالياتها في ظل الدولة الإسلامية"، الفرات، (مركز الفرات للتنمية والدراسات الاستراتيجية، كربلاء، العدد 7، 2011)، مقالة منشورة على العنوان الإلكتروني للمركز: [www.fcds.com](http://www.fcds.com).

<sup>34</sup> ن.م، [www.fcds.com](http://www.fcds.com).

<sup>35</sup> سورة الحجرات الآية 33.

فعلى العبد أن يكون عمله خدمة للإسلام ويجرده من كل لؤة وصولية، أو غرض فردي أو جماعي أو تنظيمي، انسجاماً مع خلوص العبودية لله تعالى الذي أكدت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى "قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ"<sup>38</sup>. وبحسب هذه المعادلة، يكون الولاء لله تعالى وحده، كما يكون شرط السمع والطاعة للقيادة، طاعة بالمعروف ولا طاعة بالمعصية، قال الرسول: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"<sup>39</sup>، وفي خطبة الولاية لأبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: "أطيعوني ما أطع الله فيكم، فإذا عصيتم فلا طاعة لي عليكم"<sup>40</sup> وصدق رسول الله حين قال: "إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيع حتى يسأل الرجل على أهل بيته"<sup>41</sup>. ووفق هذه القاعدة يصبح شرط الانتماء إلى أي وحدة هو تحقيق الانتماء للإسلام، والتزام مبادئه وقيمه، وحمل رسالته، وتبليغ دعوته، والاحتكام إليه، وبهذا يكون الفرد تجاوز كل الحدود المصطنعة و كل فرقة نحو وحدة أساسها الولاء للجماعة ومذكراتها الجماعية، بما يضمن تحقيق الاستخلاف للفرد على البسيطة.

**خلاصة:** ليس عيباً أن ينتمي الإنسان لقومية أو لطائفة أو لفكرة، فهذا أمر من حيث المبدأ لا اعتراض عليه، من وجهة نظرنا، لكن الاعتراض والمقاومة تظهر عندما يتحول هذا الانتماء إلى ولاء متطرف لا يعترف بالآخر وينال من مقومات الاعتدال للولاءات الأساسية للجماعة، المنتمية إلى الحضارة العربية الإسلامية ببعدها الديني وعمقها العربي. فعندما تضعف أسس هذه الهوية ويسود الاستبداد والقهر والظلم ويظهر الاحساس بالغربة وعدم الانتماء، سرعان ما تختل العلاقة بين الانتماء والولاء فتثور المسألة العرقية والطائفية على حد سواء، مما يساهم في تفتيت وصال الأمة العربية، ويمنعها من تحقيق الوحدة المنشودة، وهذا ما يجعل من العودة إلى مذكراتنا الجماعية للنظر فيها وتجديدها ونفض الغبار عنها إن صح التعبير، أمراً محتوماً على هذه الأمة ويستوجب من نخبنا الفكرية المشاركة في تحقيق هذا المشروع الحضاري.

## لائحة المراجع

1. بوزيانى الدراجي: *العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية تاريخية*، القبة-الجزائر، دار الكتاب العربي، 2003م، ط1.
2. جوزايا رويس (ترجمة أحمد الأنصاري): *فلسفة الولاء*. مصر، المجلس الأعلى للثقافة، 2002م.
3. خالد بن عبد الرحمن الجريسي: *العصبية القبلية من المنظور الإسلامي*، الرياض، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، 2006م.

<sup>36</sup> ن.م، الآية 13.

<sup>37</sup> أخرجه أبو داود برقم: (5121) في الأدب، باب: في العصبية، من حديث جبير بن مطعم - رضي الله عنه - وسند الحديث ضعيف،

رابط الموضوع: [www.alukah.net/sharia](http://www.alukah.net/sharia)

<sup>38</sup> سورة الأنعام الآية 162، 163.

<sup>39</sup> رواه عبد الله بن مسعود، انظر: شمس الدين بن محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، (تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم محمد): *تلخيص كتاب العلل المتناهية لابن*

*الجوزي*، (الرياض، مكتبة الرشد، 1419هـ، ط1)، ص274.

<sup>40</sup> عمار الطالبي، *آثار ابن باديس*، (الجزائر، الشركة الجزائرية، المجلد الثاني - الجزء الأول، 1417هـ، ط3)، ص401.

<sup>41</sup> رواه النسائي في سننه الكبرى (374/5 رقم 9174)، [www.islamport.com](http://www.islamport.com).

4. سامر مؤيد عبد اللطيف: "المواطنة واشكالياتها في ظل الدولة الإسلامية"، مجلة الفرات، مركز الفرات للتنمية والدراسات الاستراتيجية، كربلاء، العدد السابع، 2011م، مقالة منشورة على العنوان الإلكتروني للمركز: [www.fcdrs.com](http://www.fcdrs.com).
5. سعيد خالد الحسن: مدخل تمهيدي لدراسة نظرية القيم السياسية (نسق المدركات السياسية الجماعية)، نسخة محدودة التداول، ب.ن، الرباط، 2010م.
6. طارق البشري: "عن حركة تكوين الجماعات السياسية" مقالة منشورة في كتاب لمجموعة من الباحثين: جلدليات الاندماج الاجتماعي وبناء الدولة والأمة في الوطن العربي، الدوحة - قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، ماي 2014م، ط1.
8. عادل نايف أبو ترابة: "إشكالية الولاء في العقل العربي العراقي نموذجاً"، جريدة الحوار المثمن، عدد 1368 بتاريخ 4 نونبر 2005، منشورة على موقع الجريدة الإلكتروني على الرابط التالي: [www.ahewar.org](http://www.ahewar.org)
9. عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2001م.
10. عبد الرحمن منيف: "القوموية والهوية والثورة العربية" مقالة منشورة في كتاب لمجموعة من الباحثين: الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، نونبر 2013م.
11. عبد الوهاب الأفندي: "إعادة النظر في المفهوم التقليدي للجماعة السياسية في الإسلام: مسلم أم مواطن؟"، (مشروع دراسات الديمقراطية في البلدان العربية، الجماعة العربية للديمقراطية، يونيو 2001م). [www.arabsfordemocracy.org](http://www.arabsfordemocracy.org)
12. عصمت سيف الدولة: عن العروبة والإسلام، ب.م، مجلة صوت العرب، يوليو 2010م.
13. علي أومليل: الإصلاحية العربية والدولة الوطنية، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، 1985 م، ط1.
14. علي سعد لطفي: "إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة"، مقالة منشورة في كتاب لمجموعة من الباحثين: الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، نونبر 2013م.
15. عمار الطالبي: آثار ابن باديس: الجزائر، الشركة الجزائرية، المجلد الثاني - الجزء الأول، 1417هـ، ط3.
16. محمد عابد الجابري: العقل السياسي العربي محدداته وتجلياته، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2000م، الطبعة الرابعة.
17. منير شفيق: التجزئة... والدولة القطرية، القاهرة، دار الشروق، 2001م.